مناظر الصيد
في فسيفساء شمال إفريقيا

أ.د. عزت قادوس*

حرص الرومان منذ البداية على صبغ ولاية شمال إفريقيا بالروح ، و الثقافة الرومانية ، مما جعلها تلعب دوراً خلاقاً في الإمبراطورية الرومانية . و على الرغم من أن الفينيقيين كانوا قد سبقوهم في نشر العمران بها ، إلا أن الرومان لم يدخروا وسعاً في إقامة الحواضر و المستوطنات ذات الطابع الروماني بهذه الولاية . و تعد نماذج الفسيفساء الغزيرة الموضوعات ، و التي عثر عليها في المناطق المختلفة بشمال إفريقيا من أبرز مجموعات الفسيفساء في العالم الروماني كله .

و تعتبر مناظر الصيد المنعكسة من خلال هذه القطع الفسيفسائية من شمال إفريقيا من أحب و أهم الموضوعات المصورة بهذا النوع من الفنون . و قد ظهرت مشاهد الصيد و هي غنية بالعناصر المتنوعة و جاءت معبرة عن أشياء كثيرة جعلتها محببة إلى نفس الرائي .

لقد اشتهر الرومان بحبهم للصيد بل و شغفهم به شغفاً عظيماً هذا على الرغم من اختلاف أنواعه و أنواع الحيوانات التي كانوا يصيدونها[1] .

و جدير بالذكر أن صيد الحيوانات و الطيور كان قديماً منذ عصر ما قبل التاريخ ، و تدل النقوش في مختلف الأماكن على أن الإنسان كان بطبعه صياداً ماهراً للحيوانات[2].

و عند الرومان كثيراً ما ظهرت مناظر الصيد هذه في المقابر الإتروسكية مما يدل على مدى اهتمامهم بهذا الأمر منذ بداياتهم الأولى . صورة رقم ١، ٢[3].

و تتعدد الأهداف من عملية الصيد ؛ فقد يكون لمجرد التسلية ، أو ربما للدفاع عن النفس ، أو ربما كان وسيلة للحصول على بعض الأدوات التي يحتاجها الإنسان ، أو كطعام له[4].

و قد ارتبطت بعض الأشياء بعمليات الصيد في مختلف العصور ، و مختلف الأماكن مثل ملابس الصيد ، و أدواته ، و كذلك وجود حيوان الكلب ليس فقط كمساعد للصياد في عملياته ، بل و كشريك أساسي في هذا الموضوع . و لا ننسى أيضاً ما للثراء من أثر في هذا الموضوع حيث كان الأثرياء يقومون بعمليات القنص من فوق ظهور خيولهم المدربة و التي كانت تتعقبهم أو قد تسبقهم كلابهم .

و تتنوع أيضاً بطبيعة الحال أدوات الصيد المستخدمة تبعاً لنوعية الطريدة التي يصيدها الصياد ، و تبعاً لمستوى هذا الصياد نفسه ، لا سيما أن ذلك يلقي الضوء على نوع الصيد

---

* رئيس قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية ــ كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية

[1] Aymard , Jacques., " Essai sur les chasses romaines " , (Paris , 1951) { D VI / 17 , 1848 } , p. 334.

[2] جورج بوزنز و آخرون ، " معجم الحضارة المصرية القديمة " ، ترجمة أمين سلامة ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) ، ص. ١٥٨ –١٥٩ .

[3] صورة رقم ١ و ٢ من كتاب :
Ramage N. H. , & Ramage A., " Roman Art " , (London , 1995) , p. 42-43.

[4] جورج بوزنز و آخرون ، المرجع السابق ، ص. ١٥٨ .

نفسه ؛ هل هو صيد دون مخاطر كصيد الأرانب مثلاً ، أم أنه كان صيد الحيوانات المتوحشة و ما تمثله من مخاطر و مغامرة للصيادين ؟ و من هنا كان الصيد رياضة شعبية من الرياضات التقليدية التي استمرت لقرون طويلة .

و قد يلجأ الصياد إلى أدواتٍ مختلفة مثل عصا معقوفة و ربما قد يستخدم الشباك في رميها على الطريدة ، و تساعده في ذلك الحبال ، و قد تستخدم السهام أيضاً أو السكين .

و بخلاف أدوات الصيد ، و ملابسه ، و طرائده ، هناك أيضاً بعض الشخصيات التي ارتبطت به ، سواء تلك التي تلعب فيه الدور الرئيسي البارز كالفرسان النبلاء على خيولهم أو أولئك – من وراء الكواليس – آلا و هم الأتباع و الخدم اللذين يلحقون بسادتهم و يقومون بكل عمليات الصيد في حقيقة الأمر من جريٍ و لحاقٍ بالطريدة ، إلى اقتناصها و الإمساك بها ، و حملها بعد ذلك.

و هكذا يترائى أنه في حالة اللجوء إلى الصيد كرياضة ، فنجد أنها كانت تعد بحق رياضة مكلفة ، و تكاد تكون قاصرة على الطبقة العليا التي كانت تلجأ إليها لإظهار المهارة ، و المكانة العليا و ما يتمتعون به من ترف و ثراء ، فيمضون وقتهم في هذه الرياضة مع أصدقائهم ، و يعاونهم في ذلك الأتباع و الخدم .

و جدير بالذكر أن الشعب الإغريقي ثم الشعب الروماني من بعده ، كان يعتقد بأن السلطة مطالبة بتزويده بوسائل الترفيه عن نفسه[٥].

و من المعروف أن الشاعر اللاتيني جوفينال[٦] **JUVENAL** كان قد عبر عن أمنيات شعب روما حين قال نيابة عنهم : " الخبز و الألعاب " : ***Panem et Circences*** .

و هذه المقولة بل و النظرية التي ساوت بين الخبز و الألعاب ، و جعلت أهمية كلٍ منهما على قدم سواء أمام الآخر لم تكن فقط خاصة بسكان العاصمة الرومانية بل أنها عمت أيضاً بقية المدن الأخرى في شبه الجزيرة الإيطالية بل و العالم الروماني ككل .

و قد ارتبطت الرياضة ارتباطاً متيناً بالمهرجانات الدينية و التربية البدنية في الحضارات القديمة ، و في العهد الروماني برز بوضوح الشعار الذي آمنوا به ، ألا و هو " العقل السليم في الجسم السليم " ***Mens sana in corpore sano*** .

و تدل النقوش الكثيرة التي عثر عليها في هذا المجال على الاعتقاد بأن سكان الإقليم الإفريقي ربما كانوا حقاً مولعين بالرياضة أكثر من بقية سكان الأقاليم الرومانية الأخرى .

و من الرياضات التي أقبلوا عليها رياضات الصيد و العدو ، و المصارعة و الملاكمة ...

و بالنسبة إلى موضوع الصيد فنجد أنه قد صورت مناظره بطريقةٍ جعلت من كل مشهد من مشاهد الصيد هذه عملاً مستقلاً بذاته ، و مختلفاً عن غيره عظيم الاختلاف على الرغم من اشتراك هذه المشاهد كلها في الموضوع الواحد ألا و هو الصيد .

---

[٥] **المنجي النيفر ، " الحضارة التونسية من خلال الفسيفساء " (الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٦٩) ، ص. ٦١ – ٦٢.**

[٦] **جوفينال : اسمه اللاتيني هو Decimus Iunius Iuvenalis هو شاعر روماني تميز بالأسلوب النقدي الساخر أشهر أعماله هي الساتير التي صدرت في عدد من الكتب . راجع :**
The Oxford Classical Dictionary , (Oxford , 1996) , p.804

و يؤكد كل ذلك على نقطة هامة و بارزة و هي أن الصيد كان بالنسبة لهم ، ليس فقط وسيلة للهو و التسلية ، كما كان شائعاً بين طبقة الأثرياء ، بل كان أيضاً وسيلة لها أهميتها من وسائل الرزق التي يلجأ إليها الإنسان في مختلف الزمان ، و المكان .

و قبل تناول الأمثلة الفسيفسائية المصورة للصيد بالشرح و الدراسة و التحليل ، تجدر الإشارة إلى نقطة هامة قد يخلط فيها البعض بين رياضة الصيد المتعارف عليها و هي صيد الإنسان للحيوان و بين صيد آخر يتم في ميادين المصارعة.

ففي ميادين المصارعة مع الوحوش ، تكونت فرق محترفة جعلت الرياضة البريئة تفقد معناها الأصلي و هدفها الأول القديم الذي كان هو اللياقة البدنية[٧].
فقد صار رواد المسارح المدرجة متعطشين للمعارك الدامية أي تلك التي ينتصر فيها المصارع : *Venator* أو يهلك و يموت في ميدان القتال ، ناسين أن هذا ميدان للتسلية الدموية و ليس ميدان قتال حقيقي يدافع عن عقيدة و وطن . و في ميدان المصارعة ، كان الأمر يتطلب منهم مهارة كبيرة و كان يتم تدريب الأطفال منذ صغر سنهم على الصراع مع صغار الوحوش و الطيور مثلما كان الأمر في فسيفساء " دار الخيول بقرطاجة "[٩]

لقد تسابق حكام و ولاة العهد الروماني كلٍ في مركز وظيفته لإعطاء ألعاب أفخم و أعظم من زميله و ذلك لإظهار سخائه و كثرة خيراته . و كانت هذه المهرجانات تستعمل خاصة لحصول هؤلاء الموظفين على الشعبية اللازمة لإعادة تعيينهم في المراكز السامية .
و في الحقيقة كان الشعب هو الذي يدفع ثمن تلك الألعاب في شكل ضرائب يقرها الحاكم بعد تمركزه ليسترجع ما أنفقه.

لقد قص علينا بعض المؤرخين القدامى نبأ إفلاس ذوي السلطة من جراء إقامة المهرجانات ، ثم ابتكر منظمو هذه الاحتفالات العمومية فكرة إلقاء بعض الأسرى و المجرمين و المحكوم عليهم في عرين المسارح المدرجة لتفتك بهم الوحوش بدعوى ممارسة الرياضة .
و قد لزم هذا التنويه إلى مثل هذه الرياضة لكي نعود و نؤكد أن رياضة الصيد التي سوف نتناولها هي تلك الرياضة البسيطة الجميلة التي توضح مدى عبقرية الإنسان في صيد الحيوان و الطير دون عنفٍ زائد أو حب للدموية.

---

[٧] المنجي النيفر ، المرجع السابق ، ص. ٦٧-٧٠

[٨] أصبح هناك فرق " فيناتور " متنافسة و لكل واحدة منها شارة خاصة .
و من أهم الفرق : التورسكي ، و التلقني ، و الليونتي ، و البانتزيبي .

[٩] فسيفساء دار الخيول بقرطاجة : تؤرخ بحوالي عام ٣٠٠ ميلادياً و تصور أطفال صغار في لباس الصيادين المحترفين ، و قد هم أحدهم برمي حبل حول عنق بطة كبيرة بينما تقلد الثاني رمحاً قصيراً ليصوبه على قط وحشي ، و القطعة محفوظة بمستودع قرطاج الأثري .
للمزيد ، راجع : المنجي النيفر ، المرجع السابق ، ص. ١٣٢ ، لوحة ٢٥ .

الأمثلة :-

المثال الأول : فسيفساء من منزل ثري بالقرب من الجم.

Mosaic from Thysdrus

عثر على هذه القطعة الفسيفسائية في أطلال منزل رجل غني بالقرب من الجم *Thysdrus* [١٠]، و هي محفوظة حالياً بمتحف باردو بتونس[١١].

الوصف التفصيلي :

تصور القطعة مشهداً من مشاهد الصيد البري الممتعة ، حيث رتبت الصور بها في ثلاثة صفوف أفقية ، و حولها إطار بسيط . الصف العلوي منها يعكس منظر شابين ربما كانا قد تركا الدار الريفية منذ لحظة قصيرة ، و يمتطيان الآن جواديهما و يسيران ببطء خلال مزرعة من أشجار الزيتون البديعة ، و يمشي بينهما خادم .

في الصف الثاني نرى خادماً يمسك بزمام كلبين كبيرين من كلاب الصيد المدربة ، و يجريان خلف أرنب صغير يختبئ في شجيرة .

أما الصف الثالث و الأخير ففيه يطارد الفرسان و الكلاب هذه الفريسة ألا و هي الأرنب .

و تعتبر مناظر الصيد في إفريقية من أحب المناظر إلى النفوس .

الوصف التحليلي :

يسترعي انتباهنا في هذا العمل عدد من النقاط . أول كل شئ هو الطبيعة و يهمنا أن نعرف أن هذا المثال كان قد عثر عليه في مدينة الجم و هو الاسم الحديث لسيسدروس .

و هي عبارة عن مدينة تجارية تقع في شرق تونس و تعتبر بمثابة سوق كبيرة بين كل من مدينتي صوصة و صفاقس . و قد أدى مكانها الوسط هذا إلى ازدهارها و اشتهارها أيضاً بخاصة بزراعتها لأشجار الزيتون . لذلك لم يكن بالمستغرب أن نرى هذا النوع من الأشجار مصوراً بوضوح في هذه القطعة من الفسيفساء . خصوصاً في الصف العلوي حيث نشاهد فيه أشجار الزيتون و هي موزعة على يمين و يسار الصف العلوي ، بل و تظهر أيضاً في خلفيته و كل ذلك ليعطي الفنان إلى المشاهد الإحساس بأن المنظر ، و الأحداث تجري بين ربوع أشجار الزيتون الوارفة الأغصان ، أي أننا حقاً في منطقة واقعية و مزرعة حقيقية من تلك المزارع الكبيرة التي اشتهرت و ذاع سيطها في شمال إفريقيا .

و هذا يجعلنا نفكر أن هذين الفارسين قد تركا لتوهما الدار الريفية التي يسكنان بها و انطلقا بين أرجاء الضيعة لقضاء الوقت في الاستمتاع برياضة الصيد ، و الجري بين أشجار الزيتون التي تغطي أنحاء الضيعة كلها مما يوفر لهم مسرحاً مناسباً و بديعاً لعمليات الصيد التي يقبلان عليها بشدة و يحبون القيام بها .

---

[١٠] **الجم أو سيسدروس ، بالنسبة إلى أصولها فهي غامضة و لم يعثر بها على نقش من العصر ما قبل البوني ، و في عام ٤٦ ق.م. ذكر أنها مصدر للحبوب .**

(Caes. Bafr. 36.2) و بقيت طوال القرن الاول الميلادي oppidum liberum .

[١١] **رستوفتزف ، م. ، " تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي و الاقتصادي " ، (مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦) ، ص. ٢٧٥ ، ٢٧٧.**

و بخلاف أشجار الزيتون السالفة الذكر ، نرى بعض الشجيرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك لخدمة المنظر ككل فقد قصد الفنان دوماً أن يبلغنا رسالة ألا وهو أنه صادق في التعبير عن البيئة و الحياة من حوله .
إن هذه الشجيرات الصغيرة لا تقل في أهميتها عن أشجار الزيتون بل إنها تلعب دوراً هاماً هو أيضاً لا يقل في أهميته عن ذلك الدور الذي تلعبه أشجار الزيتون ، فكل هذه العناصر يجعلنا نستشعر صدق الفنان ورقة مشاعره في العمل الفني .

النقطة الثانية التي تهمنا هي الفرسان أنفسهم . ففي مشهد الصيد هذا يطالعنا منظر أربعة من الفرسان اثنان منهما في الصف العلوي . وبالنظر إليهما نلاحظ الهدوء المخيم على طريقة سيرهما وكذلك امتطائهما للخيول . ويدل ذلك على أنهما يسيران بهوادة وسكينة بين الأشجار دون أن يظهر عليهما أي تسرع أو ميل إلى العدو بل إن الجو هنا في هذا الجزء يعتبر بصفة عامة هادئ . بل إننا نكاد أن نقول أن الحصان الخلفي الموجود على اليسار يبدو وكأنه يتهادى بل و كأنه يرقص على أنغام المزمار ليقدم عرضاً راقصاً ، و ليس جواداً يسير بفارسه أثناء إحدى عمليات الصيد . و قد نلتمس له في النهاية عذراً أن الطريدة التي يبحث عنها لم تكن قد ظهرت بعد .
أما الفارس الثاني فتبدو عليه ملامح الحركة أكثر قليلاً من الأول ، حيث أن الجواد تظهر عليه بعض علامات الرشاقة البادية أثناء عملية السير . و مع ذلك فلا جدال في أنه يسير هو أيضاً بهدوء . أما بالنسبة إلى فارسه فهو مشغول بالنظر إلى الخلف إلى زميله الثاني ربما لإبلاغه بشيء ما ، أو ربما لحثه على البدء في التركيز و الاستعداد للانطلاق و العدو .

و بالنسبة إلى الفارسين الآخرين فهما موجودان بالصف الأفقي الثالث أي السفلي .
وتظهر عليهما عناصر أخرى جديدة هي الحركة و النشاط ، حيث نراهما فوق خيولهما يعدوان ويرفع أحدهما ذراعه ربما ليشجع عملية الصيد أو ليحث فارساً على الاستمرار في الجري والتقدم ، لعله بهذا يقول : أنا القائد و أعطي إشارة البدء .
فإذا وصلنا إلى عنصر الملابس ، فنجد أنه بصفة عامة تظهر علامات الثراء على ملابس هؤلاء الفرسان مما يؤكد علو شأنهما و مدى ثراء طبقتهم . و يميز هذه الفرسان أيضاً الشعر الغزير والوجه النحيل و الأجسام الرشيقة . كل هذا يؤكد نقطة كونهما من الطبقة الثرية المدللة المعتادة على ترف العيش و بذخه .

النقطة الثالثة التي نتناولها هي الحيوانات المرتبطة بالصيد ألا وهي الخيول والكلاب والطريدة . فبالنسبة إلى الخيول ، فقد عني الفنان بتنفيذها ببراعة على الرغم من كونه يستخدم قطع الفسيفساء الصغيرة و مع ذلك استطاع أن يعكس لنا جسم الجواد برشاقة و تفهم لطبيعة تكوينات هذا الجسد . فظهرت على الخيول القوة و الرشاقة في آنٍ واحد ، كذلك استطاع أن يصورها في مختلف الحالات ، سواء في أثناء العدو أم في حالة السير في هوادة ببراعة على حدٍ سواء .
وفي الوقت الذي صور فيه الفنان الخيول و كأنها تتهادى ، بل و تتراقص و هي تسير بهدوء ، نجد أنه كان صادقاً أيضاً عندما جعل الذيل يرتفع إلى أعلى و كأنه يميل على أنغام موسيقى عذبة . أما في الجزء السفلي من القطعة عند تصوير عدو الخيول ، فقد ظهرت

الجياد و هي منفرجة الأرجل في زاوية تقترب من ١٨٠ °، و هذا للإيحاء بالجري السريع لهذه الخيول . كذلك ظهر ذيلها و هو يتطاير في الهواء بفعل الرياح و العدو .

الحيوان الثاني المرتبط بعملية الصيد هو الكلب الذي يقوم بدور رئيسي سواء في هذه العملية ، أم في أي عملية من عمليات الصيد بصفة عامة .

ففي الصف الثاني من القطعة الفسيفسائية نشاهد خادماً يمسك بزمام كلبين فارعين *Slouguis* و يبدو أن الخادم على وشك أن يطلقهما على أرنب وجده كلبان آخران في شجيرة .

ثم تظهر الكلاب مرة أخرى في الصف السفلي و هي تجري ، و كل ذلك يؤكد على دورها في عمليات الصيد فهي في واقع الأمر التي تقوم بكل المجهود ، أليست هي التي تبدأ بالجري حتى تتعرف على مكان الفريسة ، ثم ترشد بعد ذلك الفرسان إليها ، و تظل تحرسها حتى وصولهم ليصيدوها ؟ إنها أيضاً التي غالباً ما تستمتع بلحم الطريدة في نهاية المطاف

نصل الآن إلى الطريدة و التي كانت هنا حيواناً بسيطاً هو الأرنب و الذي يبدو أنه كان من الحيوانات المحببة إلى نفوس الصيادين في صيدها ، و ذلك لما تتميز به من خفة في الحركة و صغر في الحجم ، كما أنه ليس بحيوان خطر على الذين يصيدونه بمعنى أنه لن يقوم بالانقضاض عليهم أو أذيتهم . و قد كان هذا الأرنب من الخفة بحيث أنه استطاع أن يختبئ خلف شجيرة صغيرة و لكن سوء الحظ لازمه عندما اكتشفت الكلاب مكانه .

آخر نقطة نتحدث عنها هي الخدم و الأتباع ، و هم يمثلون ركناً هاماً من عمليات الصيد بخاصة تلك التي يقوم بها المترفون و الأثرياء في البلاد .

لقد ظهر في المثال أمامنا خادم في الصف العلوي و كان يحمل أداة اعتقد الكاتب رستوفتزف أنها تشبه المذراة أو المضرب[١٢] ، و لكنني أرى أنها مجرد عصا تساعده أثناء عملية الصيد ربما للبحث بين الأشجار أو الأعشاب .

أما الخادم الثاني الذي كان يمسك بالكلاب فأول ما يلفت النظر إليه هو عباءته التي تتطاير مع الهواء بوقار و قوة للدلالة على المجهود الذي يقوم به . كما أننا نستشعر بوضوح مدى المجهود و العمل البدني الذي يقوم به هذا التابع .

و هكذا تتضح لنا عملية الصيد في منطقة شمال إفريقية ، و كيف كانت تتكون من عناصر عدة اهتم الفنان بكل منها على حدة ، و أعطاه حقه من العناية لكي يظهر العمل في النهاية و كأنه قصة مصورة ؛ تتتابع أحداثها أمام أعيننا في تسلسل و انتظام و كأنها مشاهد من مسلسل نتابعه بعناية لنصل إلى نهايته .

و جدير بالذكر أن قطع الفسيفساء التي عثر عليها بصفة عامة في مدينة الجم أو سيسدروس كما كانت تسمى ، و كان قد تم العثور عليها في عشرات المنازل الخاصة بهذه المدينة و التي تميز بعضها بالفخامة و الثراء الواضح ، و تؤرخ كلها بالفترة فيما بين القرن الثاني و الثالث الميلادي[١٣] .

---

١٢ رستوفتزف ، م. ، المرجع السابق ، ص. ٢٧٥ ، ٢٧٧.

[13]The Oxford Classical Dictionary , op.cit. , p.1522

المثال الثاني : فسيفساء أوذنة.

Mosaic from Oudna

عثر على هذه القطعة الفسيفسائية في أطلال دار ريفية كبيرة كانت تقع في جوار مدينة أوذنة ***Oudna*** [١٤] ، أو كما عرفت قديماً باسم " أوثينا " ، و ذلك في إفريقية البروقنصلية . و قد كانت القطعة تزين أرضية ساحة في منزل يعتقد أنه كان ملكاً لآل لابيريي Laberii[١٥]. و القطعة محفوظة بمتحف باردو بتونس[١٦]

الوصف التفصيلي :

تصور القطعة بصفة عامة مشاهد من الحياة الريفية البسيطة حيث نرى في الوسط منزلاً قروياً و جرناً و قطيعاً من الماعز و الثيران .

و قد أحيطت الصورة الوسطى من ثلاث جهات بمناظر مختلفة من الصيد . يهمنا منها الجهة اليسرى التي يظهر بها ثلاثة فرسان و هم يهاجمون أنثى الأسد و يريدون صيدها وبالتالي قتلها . أما في الجهة الثانية السفلى فصورت مناظر صيد أخرى حيث يهاجم رجل عاري الجسم خنزيراً متوحشاً .

و في الأجزاء الصخرية نجد رجلاً يتربص بطيور الحجل[١٧].

الوصف التحليلي :

الجهة الأولى اليسرى و التي كما سبقت الإشارة نجد أنه يظهر بها ثلاثة رجال في ملابس أنيقة تدل على الثراء و الهيبة و الترف ، و هم يركبون خيولاً جميلة ، و يهاجمون لبؤة و يقتلونها[١٨].

أما في الجهة الوسطى فنرى رجلاً عاري الجسم اللهم إلا من عباءة خفيفة النسيج ترفرف على أكتافه ، و هو يهاجم خنزيراً متوحشاً بين صخور في أرض بها مستنقعات ، بينما يحاول رفقاؤه أن يمسكوا كلبا ضخما يريد أن يثب على الخنزير فيقتله .

و في الأجزاء الصخرية من هذا الجزء ، نرى رجلاً آخر يتحرك ببطء و قد تتكسر في شكل عنزة و هو يمشي على يديه و ركبتيه لسوق أربعة طيور تعرف بالحجل إلى شبكة[١٩].

---

[١٤] أوذنة هو الاسم الحديث لمدينة أوثينا في تونس ، و هي في الأصل عبارة عن مدينة رومانية أقيمت في منطقة السهل الخصيب من وادي مليانة و كانت تبعد عن قرطاجة بحوالي ٣٢ كم. من الجهة الجنوبية الغربية. و قد بدأت في الأصل بكونها ولاية صغيرة يحكمها حكام بونيون ، ثم اختارها أوغسطس بعد ذلك كمستعمرة و أصبحت في عهده مقراً لجنود الكتيبة رقم ١٣. أما في عصر الإمبراطور هدريان فقد منح سكانها حق المواطنة و سرعان ما اتسعت المدينة و ازدادت رخاءً و ثراءً .

[١٥] رستوفتزف ، م. ، المرجع السابق ، ص. ٢٢٩ لوحة ٦٣ ، ١.

[١٦] المنجي النيفر ، المرجع السابق ، ص. ١٢٨ .

[١٧] رستوفتزف ، م. ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص. ٢٢٩ .

[18] Henig , Martin , A handbook of Roman Art , (Phaidon , 1983) , p.125

[١٩] المنجي النيفر ، المرجع السابق ، ص. ١٢٨

بالنسبة إلى منظر الثلاثة رجال في الكنار الأيسر ، فجدير بالذكر أنهم على ما يبدو فرسان مهرة لعل من بينهم من هو صاحب الضيعة نفسه و معه رفاقه ، أو لعلهم كلهم من أصحاب الضياع ، و الثروات ، و قد خرجوا لقضاء الوقت في رياضة الصيد الجميلة .
و تتميز ملابسهم بالفخامة و العظمة الواضحة دليل الثراء و رغد العيش . إن كل واحد منهم يبدو أنه قد اعتنى عناية خاصة بملابسه فيرتدون الكابات كي يتطاير مع عدوهم فيشع منظرهم هيبة و رهبة في النفوس .
أما بالنسبة إلى خيولهم فنلاحظ أنها خيول قوية مدربة جيداً على عمليات الصيد ، و يتضح ذلك من حركاتها و قوتها المتدفقة حيث يقوم كل حصان بالجزء الخاص به في عملية الصيد . و قد ظهر كل واحد منهم بلون مختلف ، فهناك الأسود ، و البني و الأشهب . و لا نغفل عن أن الفنان نقل لنا قوة الاحساس و عنف الحركة من خلال ظهور شعر الخيول المتطاير ، و قوائمها المنتصبة و حركة الصدر أثناء العدو . أما بالنسبة إلى منظر أنثى الأسد فلا نستطيع أن نتعرف على تفاصيلها بسهولة ، و لكن يبدو أنها كانت من القوة بحيث استدعت وجود ثلاث فرسان لمهاجمتها . و قد تغلبوا عليها بواسطة الرماح المسننة و هي الأداة التي استعملوها في عملية الصيد هذه .

أما الكنار السفلي ، فهو يختلف عن الذي سبقه ، و ينقسم إلى قسمين واضحين .
القسم الأول و هو الموجود على اليسار ، يصور أجزاء صخرية حيث يتحرك رجل ببطء و قد تتكر في شكل عنزة و يمشي كالماعز على يديه و قدميه ، و يضع ما يشبه جلد الماعز على ظهره ، و يسوق أمامه طيور الحجل كي يدخلها دون أن تشعر إلى الشبكة . و تميزت هذه الطيور بالحجم السمين و هي تسير بتؤدة دون أن تدري أنها تسير إلى التهلكة أي إلى شبكة الصياد . و يتناثر في هذا الجزء شجرتان رفيعتان قليلتا الأفرع و الأغصان و الأوراق.
أما القسم الثاني فنرى فيه الصياد الأسطوري الشهير مليا جر[٢٠] بكل قوة و ثبات يقتل برمحه الخنزير البري الكاليدوني الشهير[٢١] . و قد تجسدت الأسطورة أمامنا و ظهر مليا جر و قد ارتدت إحدى قدميه إلى الأمام ، و الأخرى إلى الخلف ، و يصوب إلى قلب الخنزير مباشرة . و هذا دليل على الجهد الذي يقوم به لتحقيق هدفه . و قد ظهر مليا جر عاري الجسم تماماً إلا من عباءة ترفرف على أكتافه و تتطاير مع أدراج الرياح .
وعلى الجانب الأخر يظهر الصيادون الآخرون رفقاء الصياد مليا جر و هم يحاولون أن يمسكوا بكلب الصيد الذي معهم و يريد أن يثب على الخنزير .

و هناك نقاط نلاحظها في هذا العمل ، و هي كما يلي :

---

[٢٠] **مليا جر هو شخصية أسطورية و هو ابن الإله آرس أو الملك الايتولي أونوس من خلقيدونيا ، أما أمه فهي آلثايا. مليا جر سمعنا عن أسطورته في صيد الخنزير في أشعار هوميروس و كانت عملية الصيد للخنزير الكاليدوني من أشهر موضوعات الفن منذ القرن السادس ق.م.**

[21] **Schmidt , Joel , " Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine " , (Paris , 1965) , p. 197-8.**

أولا : التأريخ حيث تجدر الإشارة إلى أن القطعة تؤرخ بحوالي القرن الثاني الميلادي وهي الفترة التي انتشرت بها المنازل الفخمة في تلك المنطقة.

ثانياً : تقسيم اللوحة فقد عمد الفنان إلى تقسيمها إلى سطور أو صفوف كل منها يقدم قصة أو مشهداً ما.

ثالثاً : مشهد الخنزير و هو يقاوم بشدة و عنف و ضراوة ، و تبدو عليه القوة و هو يدافع عن حياته و بمنتهى الشراسة على الرغم من وجوده في المستنقعات و بين الصخور و يحاول دون جدوى الفرار و النجاة بالحياة .

و هكذا كان الصيد من الرياضات الشعبية التقليدية المحببة إلى النفوس و استمرت على مر القرون . و قد كانت مشاهد الصيد هذه و التي عكستها أفرع الفن المختلفة تتميز بالحيوية و التنوع في الموضوعات و طريقة تناول الصيد نفسه حتى و لو كان ذلك يرتبط بالأساطير و أبطالها[٢٢].

المثال الثالث : فسيفساء درمش.

Mosaic from Dermesh

تعتبر هذه القطعة من أشهر اللوحات التي تؤكد على أن صناعة الفسيفساء كانت تقوم في إفريقيا ، و أن هذه الأخيرة و أقصد بها إفريقية كانت تصدر هذا النوع من البضاعة أي لوحات الفسيفساء إلى روما[٢٣] . و هذه القطعة الفسيفسائية محفوظة بمتحف قرطاج[٢٤] القومي بتونس . و ترجع إلى نهاية القرن الثالث الميلادي . و تسمى فسيفساء درمش نسبة إلى المنطقة التي عثر عليها بها في مدينة قرطاجة.

الوصف التفصيلي :

تمثل القطعة جانباً من قطعة فسيفسائية كبيرة الحجم ذات مشاهد خاصة بالصيد . و باختصار تصور كيفية قيام الإنسان بعملية صيد الأسود و محاولة استدراجها إلى الفخ . و القطعة التي ندرسها هي جزء من فسيفساء كبيرة الحجم .

الوصف التحليلي :

---

[22] Aymard , Jacques., op. cit., p. 334.

[٢٣] المنجي النيفر ، المرجع السابق ، ص. ٦٧ ، لوحة ٢٣ .

[٢٤] قرطاجة : هي عبارة عن مستعمرة فينيقية ، أصبحت بعد ذلك مدينة رومانية على الساحل الشمالي الشرقي من تونس . و تبعاً للكتابات القديمة أسست على يد مدينة صيدا في حوالي عام ٨١٤/٣ ق.م. و مع ذلك فلا توجد آثار فيما قبل النصف الثاني من القرن الثامن ق.م. من أشهر قوادها هاميلكار ثم هانيبال .

يطالعنا في هذه القطعة بصفة عامة منظر صيد الأسود . و في حقيقة الأمر نجد أن هذه الجزئية من القطعة تنقسم بدورها إلى عدة أقسام ، و كأنها فيلم تصويري تتتابع فيه الأحداث . و نقطة تقسيم العمل الفسيفسائي إلى أقسام أو صفوف هو عنصر اعتدنا عليه في الفن في منطقة شمال إفريقية حيث كثيراً ما لجأ الفنانون إلى تقسيم العمل بحيث يظهر في النهاية و كأنه تصوير متواصل لحدث أو كأنه تتابع لمشاهد متلاحقة .

المشهد الأول هو عملية صيد الأسد عن طريق الخدع ، فنرى منظر الأسد الذي يحتال عليه بضحية ما ، ألا و هي العنزة هنا ، و قد وضعت هذه الأخيرة ممددة أو مسجاة فوق عربة يجذبها ببطء شخص اختفى وراء قفص . فإذا نظرنا بتؤدة إلى هذا المشهد ، سوف نلاحظ أول ما نلاحظ مدى تفهم الفنان لطبيعة الأسد القوي الجسور و قد رأي أمامه فريسة ما هادئة و مستكينة ، فأغراه منظرها و طعمها الشهي كما أنه تأثر بهدوئها ، و سيطرت القوة الصامتة عليه فغلبت على التسرع ، لذلك بدا و هو يتقدم في هدوء و وداعة نحو فريسته مطمئناً ، و كأننا لا نعلم أنه سوف يفتك بها في ثوان معدودة . بل إن الناظر إليه قد يعتقد أنه يمشي و يسير في الغابة دون هدفٍ محدد . و لولا وجود العنزة لصدقنا وداعته .
و مع ذلك فلا يخدعنا هدوء ذلك ، فها هو جسمه القوي يمشي في ثبات و قوة ليتحين الفرصة و اللحظة المناسبة للانقضاض على فريسته .

أما تلك الأخيرة ألا وهي الفريسة فهي مقدمة إليه بمكر و خداع حيث إنها مسجاة على عربة صغيرة و كأنها طبق شهي يسيل أمامه لعاب ملك الغابة فينخدع بهذه الحيلة البسيطة ، و يسير و كأنه معصوب العينين لا يشغله سوى نهمه و رغبته في الفريسة و الضحية الشهية ، حتى أنه لم يلاحظ أن العربة التي تحمل العنزة تتحرك ببطءٍ شديد و ذلك لأن هناك شخصاً يقوم بسحبها بحبل بسيط و في حركة لا تكاد تكون ملحوظة مما جعله ينجح في خداع الأسد .
لا سيما وأنه مختف خلف القفص جالس في حذر يترقب سير الأحداث ، و كأن عقله تغلب على دقات قلبه لمرأى الليث .

المشهد الثاني هو انطلاء هذه الحيلة البسيطة على الأسد و وقوعه في الفخ . و على الرغم من أننا لم نرَ بعد لحظة وقوعه فعلياً في الفخ و دخوله في القفص إلا أننا نعرف أن هذا هو مصيره المحتوم ، و بالتالي نعرف أنه ما أن يدخله فسوف يسارع شخص ثانٍ جالس القرفصاء فوق القفص ذاته ، و سوف يقوم بإنزال لوحة تغلق الفخ على الليث ، و بذلك ينتصر عقل الإنسان على قوة الأسد الجبار .
و الملاحظ أن الشخص الجالس فوق القفص يسيطر عليه الهدوء و التركيز الشديد . و جدير بالذكر أن القفص لابد و أنه مصنوع بدقة و إتقان و حبكة كي يصمد أمام قوة الأسد ، و ثورته بعد اكتشافه للخديعة و وقوعه في الفخ ، مما يجعلنا نعتقد أن القفص صنع من أعواد الخشب أو الأشجار السميكة القوية لتقف بعد ذلك حائلاً بين الأسد و الهروب من الفخ .

المشهد الثالث منظر أسد آخر موجود في أسفل الصورة يهاجمه صياد . و يبدو أن الموقف هنا عصيب إلى حدٍ ما حيث يبدو أن الأسد سوف يهجم بعنف على الصياد ، و هذا ما يتضح من منظر جسمه و حركة أقدامه . و بصفة عامة يخيم على المنظر الهدوء الحذر الخطير ، مع مدى براعة الصياد و وصوله إلى تحقيق أهدافه .

و الدارس لهذه القطعة الفسيفسائية من درمش بقرطاجة ، سوف يلاحظ بقوة العناصر التالية :-

أولاً : جو القطعة العام :

على الرغم من خطورة الموضوع المصور و حيويته إلا أن المنظر بصفة عامة يسيطر عليه الهدوء و السكينة ، على عكس ما قد يكون متوقعاً من عنف في الحركة و سرعة في تتابع الأحداث .

ثانياً : الموضوع :

يسترعي انتباهنا غرابة الموضوع المصور هنا . فالمعتاد في الأعمال الفنية المختلفة من نحت و فسيفساء و صور حائطية ، اعتاد الإنسان بطبيعته الفطرية أن يرى الأسد يصيد في الغابة ما يترائى له من حيوانات كيفما يشاء دون أن يستطيع أي حيوان مهما كانت قوته و حجمه أن يقف أمامه . و لكننا هنا نفاجأ بأن الصياد ليس بالأسد و إنما هو الإنسان ، بينما الفريسة هي ملك الغابة نفسه . بل أكثر من ذلك إننا نجده منقاداً في هدوء إلى فخ من صنع الإنسان و قد لجأ الصياد إلى فريسة سهلة و مغرية هي العنزة فجعلها أمام الأسد تغريه ، و بالفعل تنجح الخطة و تنتصر إرادة و عقلية الإنسان الصياد .

ثالثاً : الخلفية :

صور الفنان بطريقة متناثرة و بسيطة شجيرات و نباتاتٍ هنا و هناك لتضفي على الغابة المنظر الواقعي الحقيقي مما جعلنا فعلاً نشعر أننا في الغابة الحقيقية و أن هذا حدث هام يحدث بين ربوعها .

رابعاً : الصياد :

إن الصياد هنا هو الإنسان بصفة عامة ليس فقط ذلك الجالس فوق القفص ، و ليس هو بذلك الذي يجر العربة و إنما هو الإنسان فقط بعقليته الفذة و عبقريته الواضحة و أسلوبه الهادئ في معالجة المواقف دون أن يرف له جفن أو تهتز إرادته أو يخاف من أن يصيد حيواناً قوياً كملك الغابة .

لكل ذلك كانت مشاهد الصيد من الموضوعات الهامة المنعكسة من خلال فسيفساء منطقة شمال إفريقيا .

صورة رقم (١)
فسيفساء الجم (الثيثدروس)

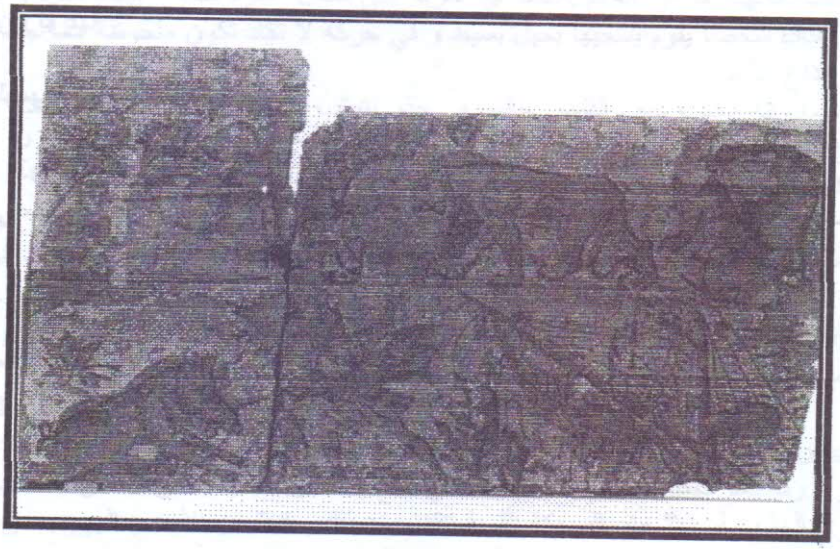

صورة رقم (٢)
فسيفساء ورمشن ــ متحف قرطاج تونس ــ قرن ثالث ميلادي